جذور العُنصريّة في الثقافة الغربية
قراءة تحليليّة نقديّة في نَمذجة تاريخ الفِكر الغربيّ

نزهة بوعزة[1]

ملخّص

يرتبـطُ الحضورُ الثقافيُّ الغربيُّ بالتَّفـوُّق والنَّمذجة الكونيّة، التـي تُصنِّفُه بوصفه عتبةً تاريخيّةً تتجاوزُ جلَّ الحضاراتِ السّـابقة، هذا الحضورُ غطَّى على إمكانيّة تَحقيق تَثاقُف بـين ثقافاتٍ مختلفة، قد تَحوز المرتبة التصنيفيّة نفسـها في المَسـار التاريخيِّ، الذي يتمُّ تأطـيرُ النَّموذجِ الغربيِّ وَفقه، ممّا أكسـبَ المَركزيّـةَ الغربيّةَ رداءَ العُنصريّـةِ الثَّقافيّة، التي تسـتمدُّ جذورَهـا من الاعتقادِ بالتَّفـوُّق النّاتجِ عن الطّابـعِ الأوروبيِّ والعَقيدةِ المَسـيحيّةِ والسَّلَف الإغريقيِّ.

هـذا التصوُّرُ العُنصريُّ، الذي يُؤسِّـسُ لبنيـةِ الثَّقافة الغربيّة، يتغـذَّى على الأيديولوجيا الأوربيّة، التي تكشَّـفَت خلالَ النَّهضة، وما زالَـت مُمتدّةً إلى يَومنا، والتي تَنحو إلى إبداعِ سَرديّةٍ غَربيّةٍ تَنتعش على الاستمراريّةِ والامتدادِ التّاريخيِّ، وتَقطعُ الصِّلةَ بالتأثيراتِ الثَّقافيّةِ الأخـرى. وبالتالي نُصبـحُ أمامَ طرفٍ مُعاكسٍ لهـذا الغَربِ، وهو الـشَّرقُ، كلُّ هذا أوجدَ وحدانيّـةً ثقافيّةً تتغذَّى بالعنصريّة وإقصـاء المُختلفِ بدَعوى التَّخلُّـف، وهو ما يُعاكسُ جوهرَ الكونيّةِ ذاتَه، الذي يَقوم على مبدأ قَبولِ الاختلافِ، الذي تمَّ طمسُه لصالحِ أن يكون الكلُّ مُحدَّثًا بوجهٍ غربيّ.

الكلمات المفتاحية: العُنصريّة الثَّقافية، التَّمركُز الغربيُّ، التقدُّم، أيديولوجيا.

1 - نزهة بوعزة، أستاذة فسلفة بأكاديمية الشرق/المغرب.

مُقدّمة

تَنطوي كلُّ ثقافة على درجة مُعيَّنة من درجات التَّمركُز على الذّات، ممّا يَعمل على خلق تَراتُبيّة تَنطلقُ من الذّات باتّجاه الآخَر، ورغم ذلك قد يظلُّ هذا التَّمركُزُ في إطار المَقبول، « إذ إنَّ التَّمركُزَ في الثَّقافات يَرتبطُ دائمًا بفترات التَّفوُّق الحضاريِّ، التي تُقدِّمُ لحاملي هذه الثَّقافات إحساسًا بالتميُّز والاختلاف والتَّعالي على بقيّة الأُمم، باعتبارها المُؤهَّلة تاريخيًّا وإنسانيًّا لبناء حضارة».[1]

إذًا قد يكونُ التَّمركُزُ الثَّقافيُّ مسألةً مُسلَّمًا بها، غير أنَّها قد تكون أيضًا مطيّةً لبلورة توجُّه عنصريٍّ مُحرِّكُه وَهْمُ التَّفوُّق الثَّقافيِّ. هذه العُنصريّةُ الثَّقافيّةُ التي تتغذَّى بالأساس على هذه المَركزيّة، فتَصيرُ هي المِنظارَ المُشكِّلَ لرُؤيتها، وقد تكون هذه الرُّؤيةُ المُتمركزةُ على التَّفوُّق الثَّقافيِّ الغربيِّ نَموذجًا لتوضيح هذه العلاقة ما بينَ الرُّؤية الذّاتيّة والعُنصريّة، ومن ثمَّةَ «يَنتمي التمركُزُ الأوروبيُّ إلى مجموعة الرُّؤى الثَّقافويّة الطّابع، إذ إنّه يَقوم على افتراض تواجُد مَسالك تَطوُّر خاصّة لمُختلف الشُّعوب لا يُمكنُ إرجاعُها إلى فعل قوانينَ عامّة تَنطبقُ على الجميع. فله، إذًا، طابعُ مَذهب مُضادٍّ للعالميّة».[2]

يَبدو أنَّ مفهومَ العُنصريّة قد وَجد شرعيّةً جديدةً تحت اصطلاح العُنصريّة الثَّقافيّة، الأمرُ الذي سمحَ بقبول الفكرة التي مَفادُها أنَّ إظهار العَداء تجاهَ الجَمع الثَّقافيِّ الخارجيِّ (الآخَرين) أمرٌ مقبولٌ ومَعقول[3]، وهي مَعقوليّةٌ مُؤسَّسةٌ على رُؤية فوقيّة تَقومُ على إعلاء هويّة مُعيَّنة وَفقَ تَصنيف حدِّيٍّ يُموضعُ الأنا في مُقابل الآخَر.

بالتالي يَصيرُ هذا التَّصنيفُ إشكالاً عندَما يتحوَّلُ إلى رؤية شُموليّة تَحكمُ مُجملَ التَّوجُّهات

١ - عبد الحق بلقيدوم: الذات والآخر من خلال المركزيات الثقافية، ص٣٧.

٢ - سمير أمين: نحو نظرية للثقافة، نقد التمركز الأوروبي والتمركز الأوروبي المعكوس، ص٧٥.

3 - Anne Claire Orban: peut-on encore parler de racisme, P4.

الخاصّــة بتَوجيه وقيادة العالَم، بدَعوى اصطفاء وُجوديٍّ، ممّا يَخلق نوعًا من التشــوُّه الثَّقافويِّ الذي يَخلقُ تراتُبيّةً ثقافيّةً على أســاسٍ عُنصريٍّ يُناقضُ جَوهرَ المُقارَبة الحَضاريّة، ومن هنا «في اطار تأسيسه لذاته كمحور للعالَم، وكمعيار لتَطوُّره ومَركزيّته، يُنكرُ الغَربُ مَفهومَ النِّسبيّة الثَّقافية التــي تُفضي إلى ضرورة احترام الفَوارق الثَّقافية السّــائدة بينَ الشُّــعوب والأُمم، وهذا ما يُعرَفُ بمَفهوم المُثاقفة في إطار حدود الهَيمنة».[1]

ففي محاولة بســيطة لرصد التّاريخ الثَّقافيِّ الإنســانيِّ يَتبيَّنُ أنَّ ما حقَّقَه الغربُ، قد جاءَ وَفقَ عمليّة التَّثاقُــف بينَ مختلف المَعارف المُســتمدّة من الحضارات الأخــرى، وخاصّةً الحضارة الهيليلنيّة والصِّينيّة والشَّرقية والإسلاميّة، لكنَّه يَنسج حجابًا وَهميًّا يُخفي عمليّةَ التَّثاقُفُ هذه.

وهو ما أثارَه لــ(برنارد مارتن - Martin Bernard)، مُشــيرًا إلى أنَّ النِّظامَ السِّــياسيَّ والعِلميَّ والفلسفيَّ والدِّينيَّ في اليونان القَديمة لم يكنْ بأيِّ معنًى أصليًّا نقيًّا عن باقي الحضارات، ولكنَّه نشــأ عن تَفاعُله مع الحضارة الفينيقيّة في الشَّرق الأدنى من آســيا، وخاصّــةً الحضارة المصريّة القَديمة، ونفسُ الأمر ينطبقُ على الفلســفة الوَســيطيّة الغربيّة، التي بُنيت على أســاس الفلسفة الإسلاميّة والعربيّة، وعلى أساسها شكَّلَت تَنويرَها.

أولًا: التَّأصيلُ التّاريخيُّ للعُنصريّة الثَّقافيّة في الغرب

إنَّ العُنصريّةَ الثَّقافيّــةَ، ويُطلَقُ عليها أيضًا العُنصريّةُ ما بعدَ الحَديثة أو التَّفاضُليّةُ، وتَعني بناءَ التَّصنيف الثَّقافيِّ على أســاس التَّفاضُل الثَّقافيِّ، لقد تتطوّر هذا المَفهوم خلال ثمانينيّات القرن العشرين على يدِ مَجموعة من الباحثينَ، على رأســهم (مارتن باركر - Martin Barker) و(إتيان باليبــار - Etienne Balibar)، حيث بدأتْ تظهرُ بــوادرُ ودعواتٌ تحملُ توجُّهاتٍ عُنصريّةً تجاهَ المُهاجرينَ والمُختلفينَ ثقافيًّا.

وهذه العُنصريّةُ، التي فتحَت إشكاليّةً أكبرَ، تتغذَّى بالعنصريّة تجاهَ الثَّقافات الأخرى، بدَعوى دُونيّتهــا، ممّا منحَها دورًا إقصائيًّا، فقــد «مارسَ الغَربُ إقصاءً مُنقطعَ النَّظير على كلِّ ما هو ليس غَربيًّا، دافعًا به إلى خارج الفَلكِ التّاريخيِّ، الذي أصبحَ الغربُ مركزَه، وأباحَ لنفسه حقَّ استغلاله

١ - بلخيرة محمد: برديغمات العلاقات الدولية المعاصرة: المركزية الغربية نموذجًا، ص٨١.

والسَّيطرةِ عليه».[1] وقد يكون الفضلُ لإثارة هذا التوجُّه العُنصريِّ في السِّياق العربيِّ يَعودُ لـ(إدوارد سعيد)، إثر نشره لكتابه «الاستشراق» عام ١٩٧٨م، مُسلِّطًا الضَّوءَ على المَأسسةِ العُنصريّةِ التي حدَّدَت الخطاباتِ الغَربيّةَ.

إنَّ الحديثَ عن التأصيلِ التّاريخيِّ لمَفهومِ العُنصريّةِ الثَّقافيّةِ الغَربيّةِ هو حديثٌ عن الجذور الأولى، وقد يكون مُفيدًا هنا التَّمييزُ ما بينَ التأصيل التّاريخيِّ لمَفهومِ العُنصريّةِ الثَّقافيّةِ والتَّجذيرِ الفلسفيِّ لمأسسة هذا المَفهومِ وَفقَ الرُّؤيةِ الاستعلائيّةِ الغَربيّة، فالمَنحى الأوَّلُ رافقَ المَسارَ التّاريخيَّ منذُ تَحالُفِ الكنيسة مع الإمبراطويّةِ الرُّومانيّة، أمّا المَنحى الثاني فقد ارتبطَ بالوعي الحَداثيِّ الذي تَرجَمَهُ مَفهومُ التقدُّم، فتَحالُفُ كلٍّ من التأطير السِّياسيِّ والاقتصاديِّ والوَعي التقدُّميِّ مَنحَ هذه الهويّةَ مِشعلَ رفعِ الكونيّةِ على باقي الحضاراتِ، لترَفعَ الثَّقافةَ الغربيّةَ في المَصافِّ المُوجِّه للتّاريخِ الإنسانيِّ.

لهذا يُمكنُ القولُ إنَّ عمليةَ التأصيلِ للعُنصريةِ الثَّقافيّةِ الغربيّةِ ارتبطَت بالبدايةِ بالسُّموِّ التأمُّليِّ للفكرِ اليُونانيِّ، ثم تعاظَمَ مع تحالُفِ الإمبراطوريّةِ الرُّومانيّةِ والمَسيحيّة، التي "أمسَتْ قُوّةً سياسيّةً حينَما اندمجَت في بناء مُؤسَّسة الدَّولة، وفيما بعدُ في ثقافةِ الغَرب".[2] هذا التَّحالُفُ الذي فتحَ أفقَ التَّوسُّعِ المَسيحيِّ بآليات الدَّولةِ الرُّومانيّة، وأوحى بنوعٍ من الاستمراريّةِ في رسمِ التَّجاربِ التّاريخيّة، ومن هنا تمَّ الادِّعاءُ بالاستمراريّةِ في تاريخ القارّةِ الأوروبيّةِ وإبداعِ جذورٍ قَديمةٍ وَهْميّة.

قد يَرتبط مفهومُ العُنصريّةِ الثَّقافيةِ أيضًا بجذورٍ بلورةِ مفهومِ «الغَرب» ذاته، فالمَفهومُ يَعكسُ خصائصَ عِرقيّةً ودينيّةً وحضاريّةً وسياسيّةً تَرتبطُ بالتّاريخِ الغَربيِّ، وقد تقوَّى هذا التوجُّهُ خلال العَصرِ الوَسيط؛ حيثُ رُبطَ المَفهومُ بقَصديّةٍ تَمييزيّةٍ تُعلي من الذّات الغَربيّة، انطلاقًا من التَّجذيرِ لها بشكلٍ أُحاديٍّ. وهو ما يُحيل إلى سياقٍ زمنيٍّ توسُّعيٍّ تعاظمَ فيه الوَعيُ بالعَقلِ الغربيِّ وتَفوُّقِه على باقي الشُّعوب.

وقد تقوَّى هذا المَنحى بفعل التَّحوُّلاتِ التي أطَّرَت فعلَ العَلمنةِ السِّياسيةِ، وفكرةَ امتداديّةِ أوروبا اعتبارًا من القرن الثامنَ عشرَ، ثم الحركة الاستعماريّة، وأيضًا الحملات الاستكشافيّة التي قادَها الغربُ نحو عوالِمَ الآخَرِ، مُحقِّقًا توسُّعَه الجغرافيَّ والثَّقافيَّ، ومُستحوِذًا على مواردَ جديدةٍ،

١ - عبد الله إبراهيم: المركزية الغربية، ص ٣٥.
٢ - عبد الله إبراهيم: المركزية الغربية، ص٣٦.

ممّا غذَّى الفكرَ الاقتصاديَّ والتَّشكلَ الأوَّليَّ للنِّظامِ الرّأسماليِّ، واستوطنَت أُولى المَعالِمِ التي تُحدِّدُ الفكرَ الغربيَّ الجديدَ.

يمُكنُ القولُ إنَّ هذه النَّظرةَ المُخصَّصةَ للعالَم، والتي تَقوم على أساس التَّقسيم الثنائيّ، أوروبي/ لا أوروبي، ومُتمدِّن/مُتخلِّف، ومُتقدِّم/ماضي، تَخدم المُخطَّطات الكولونياليّةَ الأوروبيّةَ،[1] وهو ما يُذكِّرُنا بمَفهوم الاستشراق عندَ (إدوارد سعيد)، أو موقف العالَم الغَربيِّ من الشَّرق بدايةً من اليابان وُصولاً إلى مصر، بأنَّه توجُّهٌ يَفتقرُ للفكر وكذا الفَضائل الخُلُقيّة الرَّفيعة.

إنَّ مفهومَ العُنصريّةِ الثَّقافيّةِ يَرتبط بوجه مُتشابك مع مَفهوم مَركزيّة الذّات، هذا المَفهومُ الذي يَعود لـ(سمير أمين) من خلال كتابه «نحو نظريّةٍ للثَّقافة نقدُ التَّمركُز الأوروبيِّ والتَّمركُز الأوروبيِّ المَعكوس» الصادر عام ١٩٨٨م، وهو كتابٌ يَتناول الفَهمَ المادِّيَّ للرَّأسماليّة والإمبرياليّة الغربيّة. إنَّ هذا التوجُّهَ العُنصريَّ، الذي يَرسم للتّاريخ الغَربيِّ المُمتَدِّ إلى الفلسفة اليونانيّة، يَسعى لتَقديم الحضارة اليُونانيّة بأنّها أصلُ العلم والمَعرفة، ومن هنا بدأ التَّمييزُ بينَ الشُّعوب بناءً على ثيمة العَقل، وإضفاء نوعٍ من الأسطرة على نَموذج التَّفكير اليُونانيِّ والمَسيحيِّ؛ فعلى سبيل المثال تقديمُ (سانت أوغسطين - St. Augustine) في بعض اللَّوحات والرُّسومات الحَداثيّة وما بعدَ الحَداثيّة بمَلامح رجلٍ ذي بشرةٍ بيضاءَ، في محاولة لطَمس أصوله الإفريقيّة، والتَّنصُّل ممّا قد يُؤكِّدُ تلاقُحَ الحَضارات، وهو إقصاءٌ مقصودٌ ومُمنهج، إقصاءٌ يُحاولُ أن يؤسّس التّاريخَ الإنسانيَّ انطلاقًا من اليونان القديمة وُصولاً لما نحن عليه.

ويمُكنُ رصدُ أوج هذه العَمليّة من أواخر القرن الثامنَ عشرَ، وأوائل القرن التّاسعَ عشرَ، هذا المَنحى الذي رافقَه تَشوُّهٌ ثقافيّ لجلِّ العدّة الحَداثيّة الغَربيّة في عمليّة تَصديرها إلى باقي الشُّعوب. لهذا تمَّ تَسطيرُ آليات تَطوير الدُّول انطلاقًا من النَّموذج الغربيِّ، و«قد حَذا العالَمُ حَذوَ الغَرب في ذلك أو أُشعِرَ، على الأقلِّ، بالضَّغط من أجل أن يَفعلَه. فليس هناك بالفعل أيُّ تاريخٍ آخرَ غير التّاريخ الأوروبيِّ-الأمريكيِّ، بل ليس ثمّةَ تاريخٌ أوروبيٌّ قبلَ عصر التَّنوير».[2]

توجَّهَت أغلبُ الكتابات التي تُؤرِّخُ للفكر الفلسفيِّ إلى رسم صَيرورة للتّاريخ باتِّجاه خَطِّيٍّ تقدُّميٍّ تَقودُه وتُنهيه الغَربُ، ونجدُ هذه التوجُّهات العُنصريّةَ عندَ كبار الفلاسفة مثل: (كانط -

1 - Anne Claire Orban: peut-on encore parler de racisme, p31.

٢ - وائل حلاق: الدولة المستحيلة، الإسلام والسياسة ومأزق الحداثة، ص٣٣.

Kan)و (هيجل - Hegel)و (دريدا - Derrida)و، فحتى هذا الأخيرُ قد تعاملَ مع مسألة الأعراق بتراتُبيّةٍ عُنصريّةٍ، هذا التَّصنيفُ سمحَ له بإدراج النَّموذج الغربيِّ في أعلى قمّة التَّرتيب العالَميِّ. وبهذا يكونُ «كانط قد تنكَّرَ لمبَادئه الأخلاقيّة، وغَرقَ في النَّزعة العرقيّة الشُّوفينيّة التي تُؤمن بتفوُّق الرَّجل الأبيض، وصنَّفَ البشرَ بحسب المَعايير العرقيّة وفقَ سُلَّم سيكولوجيٍّ وفيزيائيٍّ، احتلَّ فيه أصحابُ البشرة البَيضاء (الأوروبيُّون) المكانةَ العُليا في مراتب التَّفوُّق والذَّكاء».[1]

إنَّ عمليّةَ الفَرز الثَّقافيِّ الغَربيِّ عملَت على الرَّفع من الخُصوصيّة العرقيّة والدِّينيّة تحتَ شعار الإنسانيّة، وهي عُنصريّةٌ تَسمحُ بخلق تَراتُبيّةٍ بناءً على الاصطفاء الثَّقافيِّ، فـ «عُنصريّةُ التَّفاوت هي الإيمانُ بوجود تمَايُز ثقافيٍّ بينَ الأجناس، وبأنَّ هذا التَّمايُزَ له أساسٌ ماديٌّ (بيولوجيّ-بيئيّ-وراثيّ)، ثم الانتصار للجنس الذي يَنتمي إليه الفردُ أو المجتمعُ باعتباره جنسًا مُتفوِّقًا، وهو ما يمَنح عُضوًا من هذا الجنس المُتفوِّق حُقوقًا ومَزايا ومكانةً لا تُمنَحُ لأعضاء الأجناس الأخرى».[2]

هذا السِّجالُ يَعود اليومَ إثرَ ما نَشهدُه من تراجُع في الأمر الخُلُقيّ، أبرزَ تهافُتَ المَركزيّة الغربيّة التي استساغَت ربطَ التخلُّف بالانتماء الهويّتي إلى غير الغرب.

ثانيًا: أهمُّ النَّظريات الفلسفيّة التي تُؤرِّخُ للعُنصريّة الثَّقافيّة

إنَّ الإطارَ المُحدِّدَ لطبيعة التَّعايُش الدَّوليِّ يَقوم على أساس القوّة والهَيمنة، وهو ما تُؤكِّدُه مُجرياتُ الواقع العالميِّ الرّاهن، الذي يَعيشُ على تغوُّل الدُّول الغربيّة بشكلٍ لم يَسبق له مَثيلٌ، وهو مَنطقٌ يُؤسِّسُ قيادةَ العالَم وفقَ مَنطق امتلاك القوّة؛ هذا الامتلاكُ أسهمَت في دَعمه التِّقنيّةُ والعلمُ، فقد «تضمَّنَت الأدبياتُ الغربيّةُ مُتغيِّرَ القُوّة على أساس أنَّه القُدرةُ على التأثير في الآخَر في سلوكاته وتحرُّكاته وتوجُّهاته، مما يَجعلُه تحتَ هيمنة الطرف الآخر وسيطرته، خصوصًا إذا امتلكَ الطَّرفُ الأوَّلُ عناصرَ القوّة العَسكريّة والاقتصاديّة، وهو ما يَحدثُ حاليًّا في الواقع الدَّولي».[3]؛ حيثُ برزَ تحالُفٌ غربيٌّ في مواجهة باقي الشُّعوب غير الغربيّة، هذه المُواجهةُ أخذَت أنماطًا تَتراوحُ بينَ المُواجَهة أو المُراوغة أو الانصياع بوجه تامٍّ. لهذا فـ«إنَّ الخطاباتِ الأدبيّةَ والفكريّةَ

١ - د.غيظان السيد علي: الفلسفة الإفريقية: البحث عن الهوية ومناهضة المركزية الغربية، ص٤٢.
٢ - عبد الوهاب المسيري: الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان، ص١٨٠.
٣ - دحمان عبد الحق: تجليات ظاهرة القوة في الفلسفة الغربية والإسلامية، ص١٦.

والسِّياسيةَ الغَربيّةَ مَثَّلَت الذّاتَ والآخَرَ تَمثيلاً مُتحيِّزًا، حيثُ مَوضَعَت الذّاتَ في إطارٍ من التَّعالي والفَوقيّة، في حين مَوضعَت الآخَرَ في إطارٍ من الانتقاصِ والدُّونيّة، واستخدمَت في ذلك آلياتٍ خطابيّةً عديدةً، مُمتثلةً للمَرجعيّات السياسيّة والاجتماعيّة والثَّقافية».[1]

إنَّ الحديثَ عن العُنصريّة الثَّقافيّة الغَربيّة المُمتدّة في التّاريخ إلى الرّاهن العالميِّ تَستمدُّ تَوجُّهاتها الأساس عبرَ عدّة نَماذجَ لتَوجُّهاتٍ فكريّة، منها فلسفةُ القوّة، والفلسفةُ الماديَّةُ، والفلسفةُ التَّحليليّة، والفلسفةُ الأنجلوسكسونيّة،...فكيفَ تمَّ مأسسةُ هذه التَّفاضُليّة الثَّقافيّة في ظلِّ هذه المَدارس؟

جرى تشكيل العنصرية الثقافية الغربية نظريًّا، بمعنًى ما، وفقَ مجموعةٍ من المَدارس، من أبرزها فلسفةُ القوّة، التي قد نجدُ جذورًا لها في الفلسفة اليونانيّة والمَسيحيّة، لكنّ بذورَها الواضحةَ تجلَّت خلال حركة النَّهضة، وهي فلسفةٌ جاءَت ترجمةً لردِّ فعلٍ تجاهَ سياق الحروب الأهليّة آنذاكَ، ويُمثِّلُ كلٌّ من (ميكافلي - Machiavelli) و(هوبز - Hobbes) و(هيجل) الثُّلاثيَّ الرَّئيس لمأسسة القوّة باعتبارها مخرجًا ثابتًا في بناء النُّظُم السياسية المُطلَقة، إنَّ مفهومَ الدَّولة الوَطنيّة المُؤسَّسة على إطلاقيّة سُلطويّة امتدَّ إلى مستوى العلاقات الدَّولية، طبعًا في إطار كانَ فيه دورٌ فعّالٌ لكلٍّ من الهويّة والثَّقافة والدِّين الغَربيِّ. يُمكنُ القولُ إنَّ فلسفةَ القوّة يُحرِّكُها مَطلبُ المَصلحة بالدَّرجة الأولى، وأيضًا الازدواجيّةُ في المَعايير وتَغيُّرُ ميزان القوّة والمَصلحة، بينَ التوجُّه الدّاخليِّ والتوجُّه الخارجيّ.

ففي ظلِّ الفلسفة الماديّة تشكَّلَت الأرضيّةُ التأسيسيّةُ للعَديد من الفلسفات الحَديثة: منها الماركسيّة والبرجماتية والداروينيّة. فهي، بمعنًى ما، الإطارُ المَرجعيُّ لرُؤيتنا للتّاريخ والتقدُّم وللعلاقات الدَّولية، وهي بالأغلب تَرتبطُ في كثير من الأحيان بالتوجُّه الحَداثي العَقلانيِّ والمَسار التّاريخيِّ التقدُّميِّ التَّصاعديّ. فيَصيرُ التاريخُ مرهونًا بالغرب على أنَّه مَهدُ الحضارة ومُنتهاها، كأنَّنا أمامَ حلقة تاريخيّة مَعزولة عن العالَم، تَسير في مسارٍ غربيٍّ وتَنتهي عندَه، لقد استفادَت كثيرًا الفلسفةُ الماديّةُ من النَّظريّة الدّاروينيّة، في إطار استلهام مَفهوم الانتقاء الطَّبيعيِّ، وهو ما أطَّرَ الفكرَ الغربيَّ في عمليّة توجُّهه نحوَ باقي الشُّعوب، فهو يُمثِّلُ قمّةَ التطوُّر الذي يَمنحُه أمرَين قيادةَ العالَم ورَسمَ مَسارٍ ثقافيٍّ على غِرارِ مَساره.

١ - غزلان هاشمي: التحيز الأيديولوجي في التمثلات الخطابية الغربية.

وهذه التَّصوُّراتُ أسهمَت في اختزال الكائن البشريِّ في المادة-الطَّبيعة، يَسري عليه ما يَسري على الطَّبيعة في انفصال عن الخُلُقيّات والقيَم الإنسانيّة، لهذا يتوجَّهُ الإنسانُ نحوَ خدمة مَصالحه ومَنافعه المادِّيّة وبَقائه، حتَّى وإن لَبس رداءَ الوِصاية الإنسانيّة التي تَسعى لنَشر الحضارة والتقدُّم، فخلفَ الشِّعارات الجذّابة للحضارة الإنسانيّة تَنوي مُبرِّراتُ الاستغلال للإنسان ومَواردِه التي تَقوم على أساس مَبادئَ تعسُّفيّة.[1]

لقد اعتُبر العالَمُ امتدادًا توسُّعيًّا لأوروبا، وهو امتدادٌ يجبُ أن يَخدم أوروبا دون غيرِها؛ إذ تمثِّلُ النّازيةُ والاستيطانُ الصّهيونيُّ أوجَ الفلسفة المادِّيّة الغَربيّة؛ لأنَّها تَرجمةٌ للإنسان بوصفها مادةً منزوعةَ القيَم الإنسانيّة، وبالتالي تُترجمُ توجُّهًا إمبرياليًّا ماديًّا توسُّعيًّا استيطانيًّا بوجهٍ كاسحٍ ومُتجدِّد، فالقوّةُ هي المعيارُ الخُلُقيّ للمادِّيّة المؤسِّسة للتوجُّهات الامبرياليّة.

إنَّ سطوةَ المادِّيّة انتقلَت إلى مفهوم اللُّغة في ظلِّ الفلسفة التَّحليليّة، فقد ركَّزَت على وحدة العلم التَّجريبيِّ، على اعتبار أنَّه مُحدِّدٌ للحقائق، الأمر الذي أفقدَ البُعدَ الميتافيزيقيَّ والخُلُقيّ دورَه، لهذا جرى حصرُه وفقَ مبادئَ مَنطقيّة تُسيِّجُ عمليّةَ التَّواصل وفقَ الارتباط بالواقع، فلم تعدْ مُجرَّدَ تصوُّر يُبنى على افتراضات تَجريبيّة، كما كان الأمرُ خلال الأزمنة الحَديثة، بل أصبحْنا أمامَ عالَم مفاهيميٍّ وسُلوكيٍّ يُبنى على الاستخدام اللُّغويِّ المُتعارَف عليه؛ لأنَّ خارجَ هذا المُعطى لا يُوجد شيءٌ قد يُفيدُ في فَهم العالَم أكثرَ من مُكوِّناته الكائنة فيه.

عمليّةُ التَّركيز على العالَم الذي يَنضوي تحتَه الإنسانُ والطَّبيعةُ، هي عمليّةٌ قَصديّةٌ مُحدَّدةٌ، تتَّجهُ نحوَ الدَّلالة المادِّيّة والواقعيّة؛ لأنَّ السِّياقَ البرغماتيَّ للمُجتمعات الدِّيموقراطيّة ما بعدَ الحَداثيّة استوجبَت التَّقليلَ من أهمِّيّة التأمُّل الفلسفيِّ لصالح الرَّفع من واقعيّة التَّواصُل اللُّغويِّ، إذ لا حاجةَ لعالَم يَعيشُ على التَّفوُّق العلميِّ والتِّقنيِّ بالميتافيزيقا، فـ"المنهجُ التَّحليليُّ لم يكنْ يَكتفي بالتَّحليل اللُّغويِّ فقط، بل تجاوزَ ذلك إلى البحث في ماهيّة العُلوم من حيثُ تَطابُقُها مع الواقع، إذ مقياسُ نجاح النَّظريّات والأفكار مُرتبطٌ بمَدى تَطبيقها في الواقع".[2] إنَّ التوجُّهَ المادِّيَّ قد امتدَّ إلى مُكوِّنات اللُّغة، ممّا يَعني السَّعيَ نحوَ عالَم يَتطابقُ معَ العالَم دونَ الانزياح خارجَه؛ إذ كانَ هناكَ مَيلٌ خصوصًا في المدرسة التَّحليليّة المَنطقيّة نحوَ التَّكامُل معَ العالَم المادِّيّ.

1 - Anne Claire Orban: peut-on encore parler de racisme, p31.

٢ - شريف حسني خليل: منهج التحليل الفلسفي بين هدم الميتافيزيقا وإرساء اللغة العلمية، ص٢٦.

في حين تمُثِّلُ الفلسـفةُ الأنجلوسكسونيّة انتفاضةً كُبرى في وجه الفلسفة القارية، فقد جرى بفَضلها إحلالُ الوظيفة محلَّ مفهوم الجَوهر، صحيحٌ أنَّ امتدادَها تكوّن منذ القرن السّـابعَ عشرَ مـعَ (بيكون - Bacon)، ممّا يَدلُّ على الامتداد التأسـيسيِّ للفكـر الأوروبيِّ في ثَنايا هذا الفكر، لكنّه استطاعَ أن يُؤسِّسَ توجُّهًا عمليًّا وضعيًّا لا يَبتعدُ عن الفكر الواقعيِّ، على خلاف الفلسفات التأمُّليّة، التي "تَبتعدُ عن التأمُّلات والشَّـطحات الفلسـفيّة، وتَنفر من الأنظمة الفكريّة الشُّموليّة التي تُفسِّرُ كلَّ شيءٍ وتتحدَّثُ عن كلِّ شيءٍ، وتُفضِّلُ غالبًا الفلسفةَ المُتواضعةَ التي تَبحثُ فيما هو كائنٌ في الواقع".[1] لقد جرى الانتقالُ من رسـم ما يَنبغي أن يكونَ إلى التوجُّه بطريقة مركّزة إلى مـا هو كائنٌ، ممّا أفقدَ الأمرَ الخُلُقيّ والدِّينـيَّ فائدتَه، فجرى ترتيبُ الوجودِ والمَوجودِ وفقَ التوجُّه الأيديولوجيِّ الغربيِّ.

إنَّ المُلاحَظَ أنَّ المُشتركَ ما بينَ كلِّ هذه المدارس هو التخلِّي عن الوازع الدِّينيِّ أو الخُلُقيّ، واسـتحضارُ الوازع المادِّيّ النَّفعيِّ الذي يَخدم استكمالَ المسـار التّاريخيِّ الغربيِّ، خصوصًا التوجُّه الإمبرياليِّ الرّأسماليِّ، وهو الأمرُ الذي يَضع غير الغربيّ أمامَ انجراف هويّتي ليسَ له مَثيل.

تَجدرُ الاشارةُ إلى أنَّ العُنصريّةَ الثَّقافيةَ التي يَنهجُها الكائنُ الغربيُّ تتغذَّى ببنيةٍ مُعقَّدة تَجعلُ كلفةَ تَجاوُزها أو الوقوف في وجهها مُسـتحيلةَ الدَّفع، أو على الأقلِّ بعيدةَ المَنال، لهذا يَبدو أنَّ الطَّريـقَ الأيسَرَ نحو الخلاص هو الانخراطُ ضمنَ هذا المَسـار؛ لأنَّنا نتكلَّمُ عن منطق عُنصريٍّ مَدعوم بالتَّفوُّق العلميِّ والاقتصاديِّ والعسـكريِّ، وبما أنَّ الكفَّةَ غيرُ مُتوازنة، والقيادةَ مَحسومُ أمرُها، فإنَّنا إنْ راهَنَّا على أن نَعيشَ على أنماط مُحايثة للواقع السِّياسيِّ العالميِّ، ومنها الرَّأسماليّةُ واللِّيبراليّةُ والقُطبيّةُ الدَّوليّةُ، التي تَقودُها الولاياتُ المتَّحدةُ الأمريكيّة، فإنَّنا سننتقلُ من المَركزيّة الأوروبيّة إلى أمركة العالَم.

ثالثًا: المَنهج التاريخيُّ الحداثيُّ دعامةٌ لترَسيخ العُنصريّة الثَّقافية

لم تتكوّن العُنصريّةُ الثَّقافيةُ الغربيّةُ دفعةً واحدةً، بل رسـمَت نمطًا لمَسـارها التّاريخيِّ الذي عـبَّرت عنه بالمسـار التَّصاعديِّ نحوَ الهـدف النِّهائيِّ، وهـذه الصَّيرورةُ ارتبطَـت بنمط تأويلِ الأحـداث وتَضمينها معنًـى يَرتبطُ بفعاليّة العقلِ الغربيِّ، «فالهويّـةُ الغربيّةُ تَقوم في تفوُّقِها على

١ - زروقي ثامر: الفلسفة الأنجلوسكسونية: المفهوم والخصائص، ص٧٣.

غيرها، منذ العصر الإغريقيِّ إلى اليوم، على التميُّز في مُكوِّنَين: تفوُّق الشَّعب(=العرق) وتفوُّق الثَّقافة (=الحضارة). وباندماج هذَين المُكوِّنَين بفعل التّاريخ، بدأ الوَعيُ الغربيُّ يَكشِفُ عن نفسه، ليُقدَّمَ إلى الآخَر، مُتمركزًا على ذاته عرقيًّا وثقافيًّا».[1]

إنَّ عمليّةَ تجلِّي العُنصريّة الثَّقافيّة الغربيّة أخذَت مَسارًا تاريخيًّا خطِّيًّا نحو تَعظيم العَقل الغربيِّ وإخراجه عن المَسار التّاريخيِّ الاعتياديِّ، ليَحوزَ بالمُقابل على السَّبق في تَحقيق التقدُّم التّاريخيِّ، وهو الأمر الذي تجلَّى بصورة واضحة معَ فلسفات التّاريخ خلالَ القرن الثامنَ عشرَ.

واللاّفتُ في الأمر هو الشُّحنةُ الإيجابيّةُ التي رافقَت الأحداثَ التّاريخيةَ الغربيّةَ لإبراز ارتباطها- بشكلٍ حصريٍّ- بأهمِّ العَتبات التّاريخيّة المُحدِّدة لهذا المَسار النَّموذجيِّ، مثل (حركة الإصلاح الدِّينيِّ، النَّهضة، والأنوار، والثَّورة الفرنسيّة، والحَداثة، والعَقلانيّة، والفردانيّة، والذّات..)، كأنَّنا أمامَ آليّة لبناء الأحداث حتى تُحيلَ إلى معنًى تاريخيٍّ يَرسمُ فعاليّةً بَشريّةً غربيّةً دونَ سِواها، لهذا جرى إبرازُ الأزمنة الحَديثة بماهيّة أزمنة تقدُّميّة، تَحملُ آفاقًا مُنتظَرةً واعدةً، ممّا أسهَمَ في تَسطير آليات التحكُّم في الحاضر، ومُحاولات لاستباق فَرَض استمرار هذه السَّيطرة في المُستقبل، ومن هنا جرى تحديدُ غاية عرقيّة/دينيّة نَموذجيّة ضمنَ مَسار التّاريخ، فصرنا نُوالي أيَّ مسار تراكميٍّ يَنمو وفقَ رُؤية تقدُّمية، لهذا فالتاريخُ البشريُّ جرى حصرُه بوجه تعسُّفيٍّ في عاملَين، عامل الخَطِّ التّاريخيِّ الغربيِّ المتَّصل، وكذا طبيعة هذا التّاريخ الذي يتَّسم بالضَّرورة بالتقدُّم. هذان العاملان يَعملان بالمُقابل على تَغييب أيِّ تاريخ خارجَ التّاريخ الغربيِّ، فقد أعلنَ (تورغو - Turgot) عام ١٧٥٠ بالسوربون، من خلال سلسلة مُحاضراته الشَّهيرة حولَ مَفهوم التقدُّم، عن ثقته المَمنوحة من طرف عَصر الأنوار للقُدرة الإنسانيّة في السَّيطرة على الطَّبيعة، وفي قدرته على تَحسين الشُّروط الإنسانيّة بشكلٍ جذريٍّ[2]، لهذا وجبَ على باقي الشُّعوب التَّخليِّ عن تاريخها لإمكانيّة تَحقيق تقدُّم على غرار التقدُّم الغربيِّ.

إنَّ التاريخَ الغربيَّ جرى رسمُه في إطار مُترابط لكلِّ عناصره التي تَنهلُ من المَركزيّة الذّاتية المُكتفية بذاتها، بغيةَ تَحقيق تاريخ غربيٍّ صاف مُمتدٍّ من وإلى الذّات الغربيّة، فلم يتوقّف الأمرُ فقط على رسم صورة تاريخيّة غربيّة تقدُّميّة، بل إنَّ هذا التّاريخَ يَخصُّ العرقَ الأبيضَ الذي يَملكُ

١ - عبد الله إبراهيم: الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة، ص١٨٨.

2 - Jerzy A. Wojciechowski: La modernité et le progrès du savoir, l'écologie du savoir.

سـمات تَتجاوَزُ الآخَرينَ. فرَبطُ إمكانيّة التقدُّم بالتّاريخ الغربيِّ، وجعلُه الإمكانَ الأبرزَ لنُهوض باقي الشُّـعوب، يَحمل رؤيةً تَصنيفيّةً، جوهرُها تقويم المَسـار التّاريخيِّ وفـقَ رُؤية ذاتيّة تمُجِّدُ الذّاتَ وتَحتقرُ باقي الحَضارات، وتَنهجُ مَسارًا إرشاديًّا يُقدِّمُ العدّةَ المَفهوميّةَ لمَعايير بناء التَّجارب التّاريخيّة، قابلةً للاسـتلهام من طرف باقي الشُّعوب، مقابلَ إزاحة ماضيهم جانبًا، فتُصغي لرُؤية وَحدويّـة للعالَم، و«هذا أيضًا يُشـبهُ رأيَ جاك دريدا، ففي إحدى زياراتـه للصِّين ٢٠٠١ فاجأ مُضيفَه الأستاذَ في قسم الفلسفة الصِّينيّة بتَصريح في أحد اللِّقاءات قائلاً: لا وجودَ للفلسفة خارجَ الغرب، وما سوى ذلك هو فِكرٌ غيرُ فَلسفيٍّ».[1] وبهذا أُضفي على الوَعي التّاريخيِّ، وبالأخصِّ الحَداثيِّ، نوعًا من الخُصوصيّة التي تَعزلُه عن باقي العَتبات التّاريخيّة.

لقد واجهَ المأمولَ الحَداثيَّ في مستقبلٍ أفضلَ، كما رُوِّجَ له في عمليّات امتداده الثَّقافي، أزمةٌ سياسـيّةٌ مُعاصرةٌ، كسرَت الآمالَ الحَداثيّةَ بواقعٍ غربيٍّ يَعيـشُ على عدّة أزمات، وواقعٍ لا غربيٍّ يَعيش على الانحباس التّاريخيِّ النّاتج عن الانقطاع عن ماضيه ومُحاولة تَنزيل النَّموذج الغربيِّ، فالوعيُ التّاريخيُّ ما بعدَ الحداثيِّ سيأخذُ نمطًا مُختلفًا عمّا كان خلال الأزمنة الحديثة، فالوعيُ التّاريخيُّ ليس بالضَّرورة تقدُّميٌّ تصاعديٌّ، والتقدُّمُ ليس بالضَّرورة حكرًا على النَّموذج الغربيِّ، وأنَّ النَّموذجَ الغربيَّ ليس بالصُّورة التَّبجيليّة التي رفعَها الجيلُ التَّغريبيُّ إبانَ الاستقلال وما بعدَه.

تمُثِّلُ فلسفةُ التّاريخ الحَداثيّةُ نموذجًا رفعَ من قيمة التّاريخ الغربيِّ، وضمَّنَه معنًى وغايةً لبناء أفق انتظاريٍّ مُسـتقبَليٍّ تَصاعُديٍّ، وهو ما أسـهَمَ فيما بعدُ في اختزال التّاريخ إلى مسار لتَحقيق الارتقاء المادِّي، مما أسـبَغَ على مفهوم التقـدُّم صبغةً عالميّةً، الأمر الذي مرَّرَ مُسـلَّمةً مَفادُها ضرورةُ اتِّباع النَّموذج الغربيِّ لتَحقيق التقدُّم. فجرى تَغليبُ كفّة المَفاهيم ذات الكثافة المعياريّة الإيجابيّة لمَفهوم التقدُّم، على اعتبارها غايةً إنسـانيّةً خيِّرةً؛ حيثُ تمَّ تَضمينُ التّاريخ غايةً تَسـيرُ نحـوَ الكمال البشريِّ اللامحدود، فـ«الزَّمنُ له بنيةٌ غائيّةٌ مُتماسـكةٌ، فكرةٌ أنَّ كلَّ مراحلَ التّاريخ والتَّجربة الإنسانيّة الأقدم زَمنيًّا مهَّدَت لما سيأتي، وهو دائمًا أفضلُ ممّا سبقَ، وأمّا ما سيأتي فهو دائمًا أوروبيٌّ أو يَستمدُّ إلهامَه من أوروبا».[2]

يَصيرُ مفهومُ التقدُّم هنا جزءًا من التّاريخ، وأحدَ مُكوِّناته، وليسَ مُجرَّدَ توقُّعٍ أو تَنبُّؤٍ بمَسـاره،

١ - برايان فان نوردن: عنصرية الفلسفة الغربية.

٢ - وائل حلاق: قصور الاستشراق، منهج في نقد العلم الحديث، ص١٨٤.

ممّا يُحوِّلُــه إلى عنصرٍ يُترجمُ التّاريخَ الكليَّ ويَقودُه في الآن نفســه، هذه التَّرجمةُ أو التَّرادفُ ما بينَ التّاريخِ والتقدُّمِ تَخدمُ بالأســاسِ التمركُزَ الغــربيَّ، فيجري ربطُ التقدُّمِ بالحَداثةِ الغربيّةِ دونَ غيرِها، الأمرُ الذي يَعمل على تَصنيفِ التّاريخِ وفقَ تراتُبيّةٍ تُعيد مَوضعةَ الحضاراتِ بناءً على هذا المقيــاسِ الزَّمنيِّ الحَــداثيِّ، ليَتربَّعَ العقلُ التقدُّميُّ الغربيُّ فوقَ التّاريخِ. ممّا أنتجَ تشــوُّهًا ثقافيًّا أساسُه المُقاربةُ المانويّةُ الحدِّيةُ بينَ الشَّرقِ والغربِ، والتقدُّمِ والتخلُّفِ.

لقد واجهَ مفهومُ التقدُّمِ وفلســفةُ التّاريــخِ أزمةَ معنًى في ظلِّ الرّاهــنِ الغربيِّ، خصوصًا فيما يتعلَّقُ بالقيَمِ الخُلُقيّةِ التي كانَت تمُثِّلُ الأفقَ الانتظاريَّ الخيِّرَ لجلِّ فلسفاتِ التّاريخِ الحَداثيّةِ؛ إذ صرنا فيما بعدَ الحداثةِ أمامَ تاريخٍ هو النُّســخةُ الرَّسميّةُ عن القصّةِ بالطريقةِ التي يَرويها الجانبُ المُتحكِّمُ في دواليبِ التّاريخِ الكونيِّ. فالتَّجربةُ الزَّمنيّةُ ما بعد الحَداثةِ قد تُوِّجَت بتوجُّهٍ مُختلفٍ، قد يكونُ أقربَ لرَصدِ نتائجِ التَّوجُّهاتِ الحَداثيّةِ، وهي أُطروحاتٌ تتَّجهُ نحوَ غيابِ المَرجعيّاتِ، وكــذا تآكُلِ الذّاتِ لصالحِ التوجُّهاتِ الماديّةِ وتَعاظُمِ القوّةِ، مــمّا هيَّأَ الأرضيّةَ للتَّراجُعِ القِيَميِّ، ومن ثمّةَ هَيمنةُ النِّسبيّةِ المَعرفيّةِ والخُلُقيّةِ، وتَصاعُدُ التوجُّهاتِ الاستهلاكيّةِ العالميّةِ.

إذًا، لقــد أفــرزَ هذا التَّراجُــعُ القِيَميُّ الغــربيُّ هيمنةً رَفعت من مُســتوى هاجــسِ القوّةِ على حسابِ القيَمِ الخُلُقيّةِ الإنسانيّةِ، التي لَطالما رفعَها الفكرُ التنويريّ، وعملَ على التَّسويقِ الثَّقافيِّ والإمبرياليِّ لها، هذا التَّســويقُ غرَسَ وقوَّى التوجُّهَ العُنــصريَّ المُنحازَ للقَوميّةِ العرقيّةِ والدِّينيّةِ. لكنْ هل يَســتقيمُ أن نُحاكِمَ هذا الفكرَ بالجانبِ الخُلُقيّ، ألَن يكونَ حُكمُنا معياريًّا يَنطلِقُ بدَورِه من توجُّهٍ معياريٍّ مُعاكس؟

لقد نحَت القيَمُ الإنسانيّةُ التي رفعَتها الأنوارُ الغربيّةُ مَنحيَين: مَنحًى خارجيًّا أساسُه المَصلحةُ والقوّةُ ومَنطقُ الاستهلاكِ والتحكُّمِ، ومنحًى داخليًّا يَرفع، نوعًا ما، من قيمةِ مُواطنيه عبرَ تَسخيرِ غيرِ الغربيّ امتدادًا نفعيًّا له، ممّا عملَ على تدميرِ ثقافاتِ الشُّعوبِ الأُخرى، سواء عبرَ الحركاتِ الاســتعماريّةِ أو تحتَ لافتــاتِ الدِّيموقراطيّةِ والحرِّيةِ، هذا التَّدميرُ لم يَســمَحْ خُصوصًا لبُلدانِ الشَّرقِ بتَحقيقِ نَهضةٍ تَحفَظُ لهم نوعًا من رَسمِ مَسارٍ تاريخيٍّ خاصٍّ بهم، بل عملَت على استدامةِ ضَعفِهــم لصالحِ اســتدامةِ التَّفوُّقِ الغربيِّ، وهــو تَدميرٌ يتجدَّدُ في صُورٍ مُختلفــةٍ، وتحتَ ذرائعَ مُتنوِّعــةٍ، ما دامَ أنَّ الهــدفَ يظلُّ واحدًا، وهو بقاءُ قيــادةِ العالَمِ في يدٍ غربيّــةٍ، فانتقلْنا من طَرحِ النَّموذجِ الغَربيِّ نموذجًا إرشاديًّا إلى فَرضِه بالوسائلِ السِّلميّةِ أو الحربيّةِ.

ومنـهُ يُمكنُ القولُ إنَّ «المرحلةَ الحاليّـةَ للحضارة الغربيّة تُمثِّلُ طَـورَ الاجتياح الذي يَطمَحُ في صبِّ العالَم داخلَ القالب الغربيِّ على مُختلف الأصعدة والميَادين: الاقتصاديّة والسِّياسـيّة والقِيَميّـة والثَّقافية والعسـكريّة والتَّشريعية..الخ. ومنـه فالمركزيّةُ الغربيّةُ هـي مرحلةُ الطُّوفان الغربيِّ الـذي يَعني الدَّمجَ المُخطَّطَ والقَـسريَّ في قالب واحد، ونفيَ التعـدُّد والتنوُّع والتَّمايُز والاختـلاف».[1] فتَغييبُ إرادات الشُّـعوب الأخرى، وفرضُ التوجُّهـات القسريّة لا تمنَحُ هذه الإرادات فرصةً حقيقيّةً للمُشاركة في بناء التّاريخ الإنسانيِّ، ومنه لم تعد العُنصريّةُ توجُّهًا أوروبيًّا، بل توجُّهًا لتحالُف قوًى غَربيّة، فكَّكَت كلَّ القِيَم الإنسـانيّة من أجل فرض المَزيد من السَّـيطرة، والمُتغيِّرُ الوحيدُ هو نقلُ التَّمركُز الأوروبيِّ إلى تمركُز أوسَعَ تقودُه أمريكا.

يُمكـنُ القولُ إنَّ تجليّات الانهيار الخُلُقيّ ارتبـطَ بالفكر الحَداثيِّ الغَربيِّ، الناتج عن طُموح مَكننة العالَم. فمنَ المُتعارَف عليه أنَّ جلَّ المُجتمعات الإنسـانيّة تَطمحُ بالدَّرجة الأولى للسُّموِّ الخُلُقيّ والقِيَميِّ، وانهيارُ هذا السَّـقف مَعناهُ انهيارُ الأُسس الإنسانيّة؛ فالغربُ لا زالَ يُحاولُ أن يَسـتديمَ عُنصريّتَه، عبرَ عمليّة اسـتباقيّة لنيوامبرياليّة تُدخلُ مُمكنات المُستقبل لصالحه، وبهذا تحوَّلَ النَّموذجُ الإرشـاديُّ الغربيُّ إلى صورة مُخيفة تُسيِّرُ الشُّعوبَ، فصارَت الدُّولُ غير الغربيّة تَعيشُ في دوّامة تتحكَّمُ فيها المَصالحُ الاقتصاديّةُ والسياسيّةُ الغربيّةُ.

وبالتالي صارَ المُشـتركُ الكونيُّ اليومَ يَعيشُ على وقع صراع وُجوديٍّ يَفتقرُ للأُسس الخُلُقيّة، ممّا أوصلَنا إلى مشترك كونيٍّ يَقوم على الطّابع الميكانيكيِّ المَنزوع عَنه روحُه الإنسانيّةُ، فالغربُ يُرادفُ بينَ تفوُّقه ووُجوده ممّا يَعكسُ أرضيّةً للصِّراع تَستبيحُ كلَّ شيء لصالح بقائه، وهو منحًى أصَّلَتْه الحَداثةُ، ومن ثَمَّ فإنَّ مرحلةَ العُنصريّة الغَربيّة المُعاصرة تَجاوزَت المَعنى القَديمَ للعُنصريّة القائمة على تَصدير النَّموذج الإرشـاديِّ لباقي الشُّـعوب، بخَلق توجُّه مُخالف يَعكسُ عُنصريّةً تَقومُ على تَسوية الكلِّ في مَصافِّ المادّة-السِّلعة والاستهلاك، أو تَقسيم العالَم الى فئتَين فئة تَقودُ العالَم وفئة تابعة مُستهلكة لا تَملكُ زمامَ أمرها؛ إذ التَّفاوُتُ المعياريُّ يَمنحُ المُتفوِّقَ مَرتبةً مُتقدِّمةً تَسمحُ له بفَرض سَيطرة مُطلَقة على الباقي؛ لأنَّ المَركزيّةَ لم تكنْ حكرًا على النِّطاق الثَّقافيِّ، بل تجذَّرَت في البُعد الخُلُقيّ، ممّا سهَّلَ تَنصيبَهم لأنفُسهم مُحدِّدي الأمر الخُلُقيّ الإنسانيِّ.

ولهـذا فإنَّ « الغربَ يَـرى العالَمَ حولَ مَركز، يُشـكِّلُ هو جَوهَرَه، وكلُّ مَـن يَبتعدُ عن المَدار

١ - شيخاوي لخضر: نقد كونية المركزية الغربية، ص٢٤٤.

المتَّصلِ بذاكَ المَركز، يكونُ قد هَوى إلى الحَضيض، لأنَّه فقدَ اتِّصالَه بالمَركز الذي يَمنحُ الأشياءَ أهمِّيتَها».[1] ففي عالَم تَحكمُه المَرجعيّـةُ الماديَّةُ يَفقدُ مَعناهُ التَّقلديَّ لصالح سرَديات مَفتوحة، لهذا فإنَّ المَنطومةَ العَلمانيّةَ المُعاصرةَ تُواجهُ إشـكاليّةً فلسفيّةً وخُلُقيّة، لأنَّ غيابَ الثَّوابت يُنذرُ بفُقدان السَّيطرة على المشترك الكونيِّ، وانفتاح الأفق المُستقبليِّ على المَزيد من التَّصادُمات.

فهلَ يُـرادفُ انهيارُ القيم الخُلُقيّـة التي كانَت تكسـو الواجهةَ الغربيّةَ انهيـارًا لهذه المَركزيّة العُنصريّة؟ وهل غيابُ المَرجعيّة الخُلُقيّة المُتعارَف عليها بدايةٌ لتكوّن مَرجعيّة خُلُقيّة أخرى؟

إنَّ الأزمةَ الخُلُقيّة ليسَـت حكرًا على انحسار الآفاق الحَداثيّة في مستقبلٍ إنسانيٍّ أفضلَ يَقودُه الغربُ، بل أيضًا أزمة خُلُقيّة عندَ الآخَر، هذا الآخَرُ لا يَملكُ سـوى ماضٍ مُهمَّش لصالح حاضرٍ لا يَملكُ زمامَ المُشاركة فيه، ممّا يَخلق هُوّةً ذاتيّةً ناتجةً عن تَحقير الماضي والانغماس في البنى الثَّقافيّة الغَربيّة، فصرنا أمامَ حاضرٍ يُحاصَرُ بأزمتَين ومُستقبلٍ يَستبقُ الغربُ لقيادته. بالتالي، الأزمة الخُلُقيّة المُعاصرة هي أزمةٌ بمعيارٍ حَداثيٍّ قد لا يُؤثِّرُ بطريقة واضحة في مراجعة المَسار الغربيِّ؛ لأنَّ مسـألةَ التمركُز حولَ الذّات تَفرضُ رؤيةً مُتعاليةً عن الأزمة ذاتها، فتُحاول أن تتجاوزَها بخَلق عَتبة تاريخيّة جَديدة تَنتعشُ على استدامة السَّيطرة. فالفَرضيّةُ تقومُ ببساطة على افتراض مَفادُه أنَّ العُنصريّـةَ تُجيبُ بوجهٍ مُختلف عن وظيفة قديمة، فـكلُّ شيءٍ يَحدثُ وفقَ ما هو في مُجتمعات المُساواة، أي العمل على إعادته أو محاكاته بوجهٍ مختلف في المجتمعات التي تقومُ على نوعٍ من الهَرميّة أوغياب المساواة، فيجري إرجاعُ هذا التَّمييز أو غياب المساواة فعلاً لا مَشروعًا، لهذا سيتمُّ خلقُ تفاوُت جديد عبرَ مَسح النَّموذج التَّقليديِّ، وهكذا سنَحصل على أيديولوجيا العُنصريّة[2].

لهـذا لا أعتقـدُ أنَّ ما نعيشُ على وَقعه اليومَ من تحوُّل فيما يَخصُّ الأمـرَ الخُلُقيّ قد يُؤثِّرُ على منحَى العُنصريّة الثَّقافيّة الغربيّة أو حتى يُدخلها بباب التقويم الخُلُقيّ، بقدر ما قد يَفتح أفقًا عنصريًّا جديدًا مُخالفًا للعُنصريّة التَّقليديّة، وهو أفقٌ يتقوَّى بشكل كبير على المَصالح الاقتصاديّة والسِّياسيّة والثَّقافية، فغيابُ المَرجعيّة الخُلُقيّة يَسـمحُ بالرَّفع من وَتـيرة العُنصريّة، والقولُ إنَّ التوجُّهات غير الخُلُقيّة التي نَعيشُ على وَقعها في السِّـياق الغربيِّ ما بعدَ الحَداثيِّ هو أمرٌ لا إنسـانيٌّ، ربمَّا القولُ

---

١ - راضية شافعي: إدوارد سعيد ونقد خطاب الكولونيالي الغربي، ص ٢٢٥.

2 - Ahmed Lemligui: Histoire d'un rascisme au long cours, quelques pistes pour un travailleur social, P4.

يَستقيم بالنِّسبة للشُّعوب المُضطهَدة أكثرَ ممّا يُناسبُ الشُّعوبَ المُتفوِّقةَ التي تَعيش على التوجُّه العنصريِّ، باعتباره مكسبًا ثقافيًّا يُوازي المكسبَ الطَّبيعيَّ، فتَنسج غلافًا جديدًا لإضفاء الشَّرعية الخُلُقيّة على توجُّهاتها غير الخُلُقيّة، فتَصير الأخلاقُ نفسُها تتراوحُ بينَ حدَّين سلبيَّين خُلُقيًّا في ظلِّ سرديّة غربيّة تتغذَّى بالتشوّه الثَّقافيِّ للقِيَم الخُلُقيّة. فالمُحرِّكُ الرَّئيسُ للأمّة الغربيّة أن تَستعملَ ادِّعاءَ الإنسانيّة والمُشتركَ الكونيَّ باعتبارها أيقونة خُلُقيّة للسَّيطرة على العالَم.

لهذا قد يكون مُفيدًا بالنِّسبة لغير الغربيِّ فكُّ الارتباط الثَّقافيِّ المُؤسَّس على تشوُّه ثقافيٍّ يُوازي بين الغرب والإنسانيّة، والتَّنصُّل بشكلٍ جذريٍّ عن التَّوجهات المانوية التي تُقسِّمُ العالَمَ إلى مُتقدِّمٍ ومُتخلِّف، ممّا يَضعُنا أمامَ ضرورةِ نزعِ الأسطرةِ عن النَّموذج الغربيِّ.

رابعًا: أسطرةُ النَّموذج الغربيِّ

لقد طرحَ الغربُ نفسَه بوصفه نموذجًا إرشاديًّا كونيًّا، فصار هو مَن يُحدِّدُ المَنظورَ العامَّ لجلِّ المَسارات المَعرفيّة والعلميّة للعالَم، ومن ثَمَّ جرى تَقسيمُ العالَم الى قُطبَين، الأوَّل القائد/ المُستعمِل/ المُستغِلّ/ المُوجِّه/المتقدِّم/المُتحضِّر يَعكس كلَّ صفات النَّمذجة الإرشاديّة والاصطفائيّة المُمكنة، أمّا باقي العالَم فيَدخُلُ بخانة المُستغَلّ/التّابع/ الهامش/ المتخلِّف... هذه العمليّةُ التَّصنيفيّةُ تمَّ تقويتُها عبرَ العمليّة الاستعماريّة والاكتشافات الجغرافيّة والامتداد الثَّقافيِّ الغربيِّ، ممّا أسهَمَ في تَضخيم الذّات الغَربيّة ورَفعِها لمُستوى القُدوة النَّموذجيّة التي يَجب العملُ على استلهام طَريقها واستنساخ تَجاربها.

ما يَسمحُ لنا بالقول إنَّ النَّموذجَ الغربيَّ اكتسبَ في هذا الإطار ما يُمكنُ تَسميتُه بمُصطلح الأسطرة، الذي يُحيل على شُحنة إيجابيّة مُكثَّفة تنتعشُ على الرَّفع من قيمته ومَوضعته في رُتبة السَّرد الأسطوريِّ الذي يَنفردُ بتَحقيقه، فيتمُّ تَعظيمُ كلِّ الحَيثيّات والأحداث والمَظاهر والمُكوِّنات المُؤسِّسة لهذا النَّموذج، ممّا يَجعلُنا نتساءلُ: أليسَ القولُ أو التَّسليمُ بمُعطى الأسطرة في حدِّ ذاته تَعجيزًا وتقزيمًا لكلِّ إمكانات الآخَر غير الغربيِّ؟

لقد جرى رفعُ النَّموذج الغربيِّ الى مستوى الأسطرة التي خضعَت لمرحلتَين: الأولى رافقَت المرحلةَ الكولونياليّة التَّقليديّة، أما مَرحلةُ الاستقلال التي تَغنَّى بها العالَمُ غير الغربيّ (أو بلدانُ الامتدادِ الغربيِّ) فلم تكنْ سوى فجوةِ عبورٍ لنَمطٍ آخَر من الكولونيالية، هذه الأسطرةُ التي

هدفَت منذُ وعي العَقلِ الغربيِّ بتفوُّقه إلى إعادة تشكيلِ هذا الآخَر، فصرنا أمامَ تَصنيفٍ ثنائيٍّ قُطبيٍّ يَفرضُ تَوجُّهَين هما: التخلِّي عمّا عليه القطبُ الثّاني للتَّحلي-باعتباره ضرورةً لتحقيق التقدُّم- بما يُميِّزُ القطبَ الأوَّلَ. إنَّ عمليّةَ مسحِ الطّاولة التي فُرضت بالبداية عبرَ التوجُّهات الإمبراليّة الغربيّة صارَت مَسارًا واقعيًّا لجلِّ الدُّولِ غيرِ الغربيّة، هذه التَّبعيّةُ خلقَت قائدًا كونيًّا ومُريدينَ فاقدي الأهليّة للتأصيلِ الذّاتي، ومنه فقد «نجحَ الغربُ في تَغييرِ قبلة ما نُسمِّيه الإنسانيّةَ الحاليّةَ، أي الإنسانيّةَ الغربيّةَ التي فَرضت نموذجَها الذّاتيَّ في كلِّ مكان: الكلُّ غيرُ الغَربيِّينَ هو اليوم بصَددِ التذوُّبِ بشكلٍ غربيٍّ.»[1] فصرنا أمامَ نموذجٍ وَحدويٍّ، ومِن ثَمَّ صارَ هو مُنتجَ المَعرفة ومُبدعًا للقيم ومُحدِّدًا للمَبادئ الإنسانيّة، ممّا أنتجَ تمايُزًا فكريًّا بينَ الشُّعوب، هذه المُقاربة الثنائيّة تَرومُ مأسسةَ توجُّهٍ قطبيٍّ مُحرِّكُها بالأساس عمليّةُ الأسطرة التي لا تدعُ مَجالًا للشكِّ في النَّموذجِ المقدَّم، بل وجودُه يَفرض ضرورةَ التخلِّي عن ماضٍ تمَّ رَكنُه جانبًا بدَعوى تخلُّفه عن الرَّكبِ النَّموذجيِّ المُسلَّم بتفوُّقِه، فضِمنَ هذه السَّرديةِ التّاريخيّةِ الغربيّةِ لا وُجودَ لغيرِ الغربيِّ.

وبالتالي، فإنَّ عمليّةَ الانغماسِ في تمَجيدِ النَّموذجِ الغربيِّ جعلَنا نَركنُ تاريخَ الشَّرق جانبًا، أو نقيمُ تمايُزًا تفضيليًّا يَحجب الرُّؤيةَ الكونيّةَ عن باقي الشُّعوب، كأنَّنا أمامَ عمليّةِ إخراجِ كلِّ النَّماذجِ غير الغربيّة من التاريخِ الإنسانيِّ، ومُرادفة التّاريخِ الإنسانيِّ بالمقابل بمَفهوم التقدُّم الغربيِّ، وهو ما قام على أساس وجودِ حدودٍ تَمييزيّةٍ للعقلِ الغربيِّ المُمتدِّ من الفلسفة اليونانيّة إلى اليوم. وبالتالي أوجدَ عمليّةَ الفَصلِ والانفصالِ عن العالَمِ وهو داخل العالَمِ نفسه، لأنَّ التَّمييزَ المَعرفيَّ رسمَ بالمقابل تَمييزاً عرقيًّا في السَّرديّة الغربيّة، ومِن ثَمَّ فالتَّمركُزُ الغربيُّ هو «ظاهرةٌ ثقافيّةٌ تَفترضُ وجودَ ثوابتَ ثقافيّةٍ مُميَّزةٍ تُشكِّلُ المَساراتِ التاريخيّةَ للشُّعوبِ المُختلفة، ولذلك فإنَّ المَركزيّةَ مُعاديةٌ للكونيّة (العالمية)، لأنَّها غيرُ مُهتمّةٍ بالسَّعي إلى قوانينَ عامّة مُحتملة للتطوُّر الإنسانيِّ. ولكنَّها تُقدِّمُ نفسَها باعتبارها كونيّةً، لأنَّها تَزعُمُ أنَّ تقليدَ جميعِ الشُّعوبِ النَّموذجَ الغربيَّ هو الحلُّ الوحيدُ لتَحدِّياتِ عصرِنا».[2]

---

١ - فتحي المسكيني: لا معنى للحرية تملك مضمونًا جاهزًا.. والمفكر الذي يحمل هوية جاهزة هو داعية يحرس جثة.

٢ - شيخاوي لخضر: نقد كونية المركزية الغربية، ص٢٤٤.

هذا التوجُّهُ لم يَعدْ قائمًا بالحدّة نفسها كما كان خلالَ حركات الاستقلال؛ حيثُ رَفع تحدِّي قيادة باقي الشُّعوب غير الغربيّة بحُجّة خيرِّة، في حين أنَّ الحجّةَ الخيرِّةَ تَتغاضَى عن مَطلب الخُصوصيّة الثَّقافيّة لباقي الشُّعوب، هذه الهالةُ رافقَت عمليّةَ أسطرة النَّموذج الغربيِّ، لم تُحقِّقْ نهضةً للشُّعوب الضَّعيفة بقَدر ما عَملَت على سحب مَواردهم الطَّبيعيّة لصالحها، كما أفقدَتْهم الصِّلةَ بتُراثهم؛ لأنَّها أوهمَتْهم أنَّ نموذجَها هو الأصلَحُ، فما عليهم سوى مَسح الطّاولة وإعادة البناء وفقَ النُّسخة الغَربيّة، ممّا أوضحَ وَهْمَ النَّموذج الغربيِّ التَّسويقيِّ الذي لم يَسعَ إلى تَحقيق الأفضلِ للإنسانيّة بقَدر ما سَعى للوصول إلى ما يَدعمُ استمرارَ تفوُّقه وقيادته للعالَم. فلم نعدْ كما كنّا سالفًا أمامَ سرديّة غربيّة تَسعى لنشر الحَضارة وفقَ أفق إنسانيٍّ، بل صِرنا أمامَ تغوُّلٍ غربيٍّ بفعل تبعيّة الآخَر وتَفوُّق الأنا، فـ «بهذه الثَّقافة الماديِّة يَسعى الغربُ إلى حُكم الشُّعوب، وفرض نوعٍ من القَيصريّة الطّاغية، دونَ أن يَهدفَ الى نشر حضارةٍ».[1] فصِرنا أمامَ تجدُّد أشكالِ السَّيطرة التي تَستبقُ الزَّمنَ لاستدامة تفوُّقِها مُستقبلاً.

خاتمة

رغمَ اعتماد النَّقد مَنهجيّةً رئيسةً في التوجُّه التأمُّليِّ الغربيِّ، خصوصًا خلال الأزمنة الحَديثة، لكنّها مع ذلك سلكَت منهجًا في بعض أوجُهه عُنصريًّا، فكان التوجُّهُ النَّقديُّ يَخدم المصلحةَ الأوروبيّةَ لحصولها على الاصطفاء الكونيِّ، ومن ثَمَّ سَهُلَ القولُ إنَّ الثَّقافةَ الغربيّةَ «في عمومها ثقافةٌ مُتعاليةٌ، مُتمحورةٌ حولَ نفسها، قوامُها النَّظرُ إلى الآخَر نظرةً دُونيّةً منذُ الفلسفة الإغريقيّة إلى الآنَ.»[2] صحيحٌ أنَّ الغربَ قد تحطَّمَت صورتُه النَّموذجيّةُ مرارًا، خصوصًا من خلال الأزمات العالميــة وازدواجيّة المَعايير المتَّخذة في التَّعامُل مع الدُّول الخارجة عن نطاق الانتماء العرقيِّ، فـ «ثقةُ الغرب في احتكاره العَقليِّ بدأتْ تَتزعزعُ في النِّصف الثّاني من القرن العشرين، ذلك أنَّ أزمةَ الفيزياء والعِلم المُعاصِر قد طرحَت للنِّقاش أُسسَ المَنطق القَديم، والاتِّصالُ بالحضارات

١ - عماد الدين إبراهيم عبد الرزاق: نقد الحضارة الغربي في فكر مالك بن نبي، ص٤٨.

٢ - حوار مع عبد الله إبراهيم: في نقد المركزيات الثقافية، أجرى الحوار عدالت عبد الله سيروان، ايلاف ١١ سبتمبر ٢٠٠٧، WWW.elaph.com

الكبرى المُختلفة فكريًّا عن حضارتها(..) حطَّمَ إطارَ النَّزعة الإنسانيّة القديمة».[1]

ورغم ذلك تظلُّ عمليّةُ انخراطِنا ضمنَ هذا النَّموذجِ أمرًا واقعًا يَفرِضُ تَجديدَ علاقتِنا معَ ذاتِنا حتى ونحن نُحاولُ الاستمرارَ في استلهامِ النَّموذجِ الغربيِّ؛ لأنَّه صارَ جُزءًا من مُكوِّناتنا الهويّتيّة، إذ وجبَ الوَعيُ بالتَّوجُّهِ العُنصريِّ للغربِ، والعملُ على نزعِ الأسطرةِ عنه بطريقة نقديّة لا يَنجرُّ نحو النَّزعة التَّنويريّة العَمياء، ومنه الوَعي بإمكانِ التقدُّمِ الهويّتيّ الخاصِّ بنا حتى في إطارِ عمليّةِ التَّلاقُحِ معَ الفكرِ الغربيِّ في بُعدِه المَعرفيِّ وليسَ التوجُّهَ الأيديولوجيّ. لنَخلق إمكانيّةً على مُثاقفةِ الغربِ بشكلٍ مُزدوجٍ يَنطلقُ من خارجِ وداخلِ نَموذجِه لتَحقيقِ نهضته الذّاتيّة بَعيدًا عن الوصايةِ التي تتمأسَسُ على جوهرٍ عُنصريٍّ يَستديمُ العَجزَ لأجلِ إعلاءِ التَّمركُزِ الغربيّ.

١ - كمال عبد اللطيف: نقد المركزية الثقافية الغربية، فكر وقضايا عامة، العدد ٤٣٩، العربي، www.alarabi.nccal.gov.kw

المراجع والمصادر

باللغة العربية:

- برايان فان نوردن، عنصرية الفلسـفة الغربية، ترجمة موسى غزواني، حكمة، ٢٠١٨، تاريخ الزيارة ٢٠٢٤/٢٠/١١، www.hekma.org
- بلخـيرة محمد، برديغمات العلاقـات الدولية المعاصرة: المركزيـة الغربية نموذجًا، الأكاديمية للدراسـات الاجتماعية والإنسـانية، قسـم العلوم الاقتصادية والقانونية، العدد١٠، جوان٢٠١٣، ص٧٧-٨٥.
- حوار مع عبد الله إبراهيم، في نقد المركزيات الثقافية، أجرى الحوار عدالت عبد الله سيروان، إيلاف ١١ سبتمبر ٢٠٠٧، WWW.elaph.com
- دانيل ليتل، فلسفة التاريخ، ترجمة طريف السليطي، حكمة، ٢٠٢٠/٠٧/٠٣، www. hekma.org
- دحمان عبد الحق، تجليات ظاهرة القوة في الفلسفة الغربية والإسلامية، مركز المجدد للبحوث والدراسات، إسطنبول/ تركيا ٢٠٢٣م.
- راضية شافعي، إدوارد سـعيد ونقد خطاب الكولونيالي الغربي، دفاتر مخبر الشعرية الجزائرية، المجلد٣٠، العدد١٠،أكتوبر ٢٠١٩.
- زروقي ثامر، الفلسفة الأنجلوسكسونية: المفهوم والخصائص، مجلة الحوار الثقافي، جامعـة عبد الحميد بـن باديس، كلية العلـوم الاجتماعية، مخبر حـوار الحضارات والتنوع الثقافي وفلسفة السلم، المجلد ٦،ع١، خريف ٢٠١٦، ٦٥-٧٤.
- سمير أمين، نحو نظرية للثقافة، نقد التمركز الأوروبي والتمركز الأوروبي المعكوس، معهد الإنماء العربي، دراسات الفكر العربي، الطبعة الأولى ١٩٨٩.
- شريف حسـني خليل، منهج التحليل الفلسـفي بين هدم الميتافيزيقا وإرسـاء اللغة العلمية، مجلة آفاق علمية، المجلد ١٣، العدد ٠٤ /٢٠٢١، ص١٤-٢٨.
- شيخاوي لخضر، نقد كونية المركزية الغربية، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة وهران ٢، مجلة التدوين، المجلد ١٢، العدد٢(٢٠٢٠)، ص٢٤٣-٣٥٨.

- عبد الحق بلقيدوم، الذات والآخر من خلال المركزيات الثقافية، مجلة جيل الدراسات الأدبية والفكرية، عدد ٥٢.
- عبد الله إبراهيم، الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة، الدار العربية للعلوم ناشرون، الطبعة الأولى ٢٠١٠.
- عبد الله إبراهيم، المركزية الغربية، منشورات الاختلاف، الدار العربية للعلوم ناشرون، الطبعة الأولى، ٢٠١٠م.
- عبد الله إبراهيم، المركزية الغربية، مؤمنون بلا حدود، ١٣ يونسو٢٠١٩، www.mominoun.com
- عبد الوهاب المسيري، العالم من منظور غربي، دار الهلال، العدد٦٠٢، فبراير ٢٠٠١.
- عبد الوهاب المسيري، الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان، دار الفكر، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة ٢٠٠٧م.
- عماد الدين إبراهيم عبد الرزاق، نقد الحضارة الغربي في فكر مالك بن نبي، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، الطبعة الأولى ٢٠١٩.
- غيظان السيد علي، الفلسفة الإفريقية: البحث عن الهوية ومناهضة المركزية الغربية، مجلة متون، ص٤٢.
- فتحي المسكيني، لا معنى للحرية تملك مضمونًا جاهزاً.. والمفكر الذي يحمل هوية جاهزة هو داعية يحرس جثة، حاوره عدالت واعزيز وإلياس أبو الرجاء، ١مايو٢٠٢٤، حوار، الفيصل، www.alfaisalmag.com
- كمال عبد اللطيف، نقد المركزية الثقافية الغربية، فكر وقضايا عامة، العدد ٤٣٩، العربي، www.alarabi.nccal.gov.kw
- وائل حلاق، الدولة المستحيلة، الإسلام والسياسة ومأزق الحداثة، ترجمة عمرو عثمان، مراجعة ثائر ديب، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الطبعة الأولى٢٠١٤.
- وائل حلاق، قصور الاستشراق، منهج في نقد العلم الحديث، ترجمة عمرو عثمان، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، الطبعة الأولى بيروت ٢٠١٩.

باللغة الإنجليزية

- Anne Claire Orban, peut-on encore parler de racisme, analyse des discours d'exclusion et des mécanismes de rejet, Edition couleur livre, Bruxelles 2015.
- Ahmed Lemligui, Histoire d'un rascisme au long cours, quelques pistes pour un travailleur social, Rascisme ordinaires? 1/races et rascisme, le sociographe, 34, 2011.
- Jerzy A. Wojciechowski, La modernité et le progrès du savoir, l'écologie du savoir, 17mars 2000, L'agora, www.agora.qc.ca. Vu le 22/ 03 /2022.